الشكوى في أدب أبي حيان التوحيدي

أ.د. فائز طه عمر
كلية الآداب – جامعة بغداد

مقدمـــة

أبو حيان التوحيدي (ت بعد ٤٠٠ هـ) ضمير عصر بأكملـــه ، ومثلـت نصوصه النثرية ، في الكثير منها ، صرخة احتجاج على فقر مدقع كان هو فيـــه ومن مثله من (العلماء وعامة الشعب ممن لم يتصلوا بالخلفـــاء والأمـــراء ومـــن إليهم)[١] ، وتجلت هذه الصرخة وظهرت قوية في شكواه التي بثها في ثنايا كتبـــه ورسائله ، تلك الشكوى التي مثلت مظهرا من مظاهر شخصيته التي عرف بـــها ، والتي ظهرت بصور وأغراض مختلفة ، مما دعا أشهر من ترجم له ، وهو ياقوت الحموي ، إلى وصفه بأنه كان (محدودا محارفا يتشكى صرف زمانه ويبكي فـــي تصانيفه على حرمانه) [٢] .

وقد آثرنا متابعة نصوص شكواه في مصنفاته ورسائله لشدة تعبيرها عـــن شخصيته ، ولقوة أسلوبها الفني ، مشيرين إلى أبرز معانيـــها ودلالاتـــها ، حتـــى بلوغه مرحلة شعوره بالغربة[٣] ، التي تمثل جانبا آخر من نثره يستحق الاهتمام ، مع أن اغترابه كان من أشد البواعث التي دفعته للشكوى . ومن المناسب الإشارة، هنا ، إلى أنه مهما اختلفت الآراء في تفسير ظاهرة الشكوى عند أبي حيان[٤]، فأنه كان يرى لنفسه مكاناً أسمى مما هو فيه ، ومنزلة بين معاصريه أعلى مما عرفـت له ، فهو بعد أن أحرق كتبه صرح بأنه جمع (أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منـهم ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ...)[٥] .

إذ كان يجد نفسه ندّا لكثيرين ممن نالوا الحظوة والمكانـــة الرفيعـــة فـــي حياتهم، مما يظهر في عدد من مواقف جمعته مع الوزير الصـــاحب بـــن عبـــاد (ت٣٨٥هـــ) رواها في رسالته (مثالب الوزيرين) [٦] تجده فيها لا يهتم بما ينبغيـــه

منه الكبراء من إظهار تذلل وخضوع لهم ، مع ظننا أنه كان يدرك كيفية التصرف معهم ، المرغوب فيه منهم ، وليس كما وصفه أبو الوفاء المهندس (ت ٣٧٦هـ) بقوله له (.. وأنت غرّ لا هيئة لك في لقاء الكبراء ، ومحاورة الوزراء وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك ...)[٧] . ألم يستأذن أبو حيان الوزير أبن سعدان (ت٣٧٥هـ) الذي سامره في ليالي (الأمتاع والمؤانسة) أن يخاطبه بالكاف[٨] . أي بصيغة المفرد فمرارته من عدم إدراكه ما يريده كبيرة ولا تعاد لها إلا مرارته من اولئك الذين أدركوا ما يريدونه مع نقصهم وجهلهم ، مما بدا واضحا في مسألته إلى أبي علي مسكويه (ت ٤٢١هـ) التي أسماها ملكة المسائل ، التي نقرأ منها قوله : (حدثني عن مسألة هي ملكة المسائل ، والجواب عنها أمير الأجوبة ، وهي الشجافي الحلق .... وهذا كله لعظم ما دهم منها ، وأبتلي الناس به فيها ، وهي حرمان الفاضل وإدراك الناقص) [٩] ولا يعدم أبو حيان شخوصا يمثلون هذا الناقص الذي أدرك مسئوله ، في عدد ممن كانوا يجالسون الوزير ابن سعدان ، فقد وصفهم بصفات يظهر فيها مثالبهم وعيوبهم نحو قوله في أحدهم المسمى بهرام (ت ٣٧٥هـ) : (وأما بهرام فرجل مجوسي ذميم ، لا يعرف ولا يرجع إلى حفاظ، غرضه أن ينجح في الدنيا بجاهه ، ولا يبالي أبن صار بعاقبته...)[١٠] كما أن الرجال الذين كانوا على وفاق معه لم يسلموا من ثلبه[١١] كذلك ، وهو في ذلك ينطلق من طبيعة عرف بها تمثلت باشتغاله بالقدح والذم[١٢]، ومن إيمانه بأن الإنسان ، مهما كان ، غير مبرّأ من النقص والتقصير[١٣] لذا وصفت صور من وصفهم بأنها صور أنطباعية ناقدة[١٤] وهو يرى أن نشر المعايب ، عامة ، هو لأجل تجنبها[١٥] لأنه يعتقد بقوة تأثير الشر وسرعته مما جاء في إحدى مسائله : (وكيف صار يؤثر الشرير في الخير أسرع مما يؤثر الخير في الشرير ؟)[١٦] .

وهو لم يكتف برصد الظواهر السيئة عند الأفراد ، بل تراه مصورا ظواهر اجتماعية سيئة كثيرة[١٧] ، مظهراً جزعه منها .

معاني الشكوى وأغراضها :

شكا أبو حيان الكثير من الأشياء والأشخاص والظواهر اليومية والكبيرة التي عاشها أو عاشت حوله ، وبالغ في ذلك كثيرا مما دعا مسكويه إلى نصحه بالتخفيف من شكواه والتأسي بكثرة الشاكين حوله ، فكلٌ يشكو همه ، إذ قال له (قرأت مسائلك التي سألتني أجوبتها في رسالتك التي بدأت بها فشكوت فيها الزمان واستبطأت بها الأخوان ، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم ، فأنظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأسّ ، أو إلى الصابرين معك وتسل ، فلعمر أبيك أنما تشكو إلى شاك ، وتبكي على باك ، ففي كل حلق شجى ..) [١٨] فتراه يشكو العالم كله فيذمه ، بعد دعاء لمن يخاطبه ، في قوله (ونجوت من معالم عللٍ الساكنُ فيه وجل ، والصاحي من أهله ثَمِل ، والمقيمُ على ذنوبه خَجِل ، الراحلُ عنه ، مع تماديه ، عجل ..) [١٩] .

وتتأكد شكواه وتتسع لتشمل الزمان كله الذي يعيش فيه بما يتمثل في ناس خلوا من المصلحين ومن الكرام ، في قوله (وقد بلينا بهذا الدهر الخالي من الربانيين الذي يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم ، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم ، ويوسعون على غيرهم من سعيهم..)[٢٠].

وبعد أنْ يصف أحوال الماضين وما كانوا فيه من حال حسن وخلق رفيع يعود شاكيا زمانه وما شاع فيه من قيم فاسده قائلاً :

(.. وأصبح الدين وقد أخلق لبوسه ، وأوحش مأنوسه ، وأقتلع مغروسه، وصار المنكر معروفا والمعروف منكرا ، وعاد كل شيء إلى كدره وخاثره ، وفاسده وضائره ، وحصل الأمر على أن يقال : فلان خفيف الروح ، فلان حسن الوجه ، وفلان ظريف الجملة حلو الشمائل ظاهر الكيس قوى الدست في الشطرنج، حسن اللعب في النرد . لا يغضي عن دانق ولا يتغافل عن قيراط ، إلى غير ذلك مما يأنف العالم من تكثيره ، والكاتب من تسطيره وهذا كلها كنايات من الظلم والتجديف ، والخساسة والجهل ، وقلة الدين وحب الفساد .) [٢١] أليس في

هذا الكلام جواب عن سؤال ألح عليه وجهه لأحد ممن كان يجالسهم من الفلاسفة في سوق الوراقين ، ببغداد ، قال فيه : (بأي معنى يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان ، وهذا المكان أفضل من هذا المكان ، وهذا الأنسان أشرف من هذا الإنسان ؟ ...)[٢٢] . فزمانه ، بما يرى ، فاسد ، معدوم الفضل ، مما دفعه الى الصراخ بالشكوى منه ومما تعارف عليه أبناؤه ، مفضّلا مفارقة الموت على الحياة فيه إذ يقول (وأنك ترى زمانك فاسد المزاج ، أبيّ الخير ، معدوم الفضل ، قليل الناصر ، بعيد المنعطف ، لا جرم والله ، الموت متمنى ، والحياة مقلية ، واليأس واقع ، والحياة بلا قع) [٢٣] . ذلك لأن الخطأ قد غلب ، والشطط قد كثر والجهل قد طغى : (... أشتد اللغط وكثر الغلط ، ورجع كل الى الشطط ، وفات ، والله الفهم الفاهم والوهم الواهم ، وبقي مع الخلق علم مختلف فيه ، وجهل مصطلح عليه ، وأمر قد تبرم به ، ونهي قد ضجر منه ، وحاجة فاضحة وحجة داحضة ، وقول مزوق ، ولفظ منمق وعاجل معشق ، وأجل معوق وظاهر ملفق ، وباطن ممزق ، إلى الله الشكوى من غلبات الهوى ، وسطوات البلوى ..) [٢٤] . هاهو أبو حيان يضع إصبعه على الداء ويشخصه مبينا أسبابه ، فشكواه ذات طابع نقدي اجتماعي ويبدو أن أبا حيان وقد أصابه من سهام الجهال الذين لم يزهدوا بالعلم فحسب بل تراهم يقذفون المشتغلين به ، مما بينه في قوله (وقلما تصيب في زمانك هذا ، ذهنا يولع بالبحث عن غامضه ، ويلهج بالبحث عن مشكلة . وليتهم إذ زهدوا في هذه الحكم لم يقذفوا الخائضين فيها ، والمنقبين عنها بالتهم) [٢٥] .

ونجد ابا حيان ، في نصوص أخرى يشكو فيها ، يصرح بأسباب العلة في زمانه وفي أهله ، مما ظهر في سوء التدبير ، وعدم الحزم ، وفقدان العلم ، والحياء ، وظلم الناس لبعضهم ، منها قوله : (ولعمري ما زالت الدنيا على سجيتها المعروفة ، وعادتها المألوفة ، ولكن اشتدت مؤونتها ، وتضاعفت رزيتها اليوم بفقد السائس الصارم ، وبعدم العابد العالم ، وبأنقراض أهل الحياء والتكرم ، وبتصالح الناس على التعادي والتظالم .) [٢٦] ، فشكواه هنا كما هي في أغلب

نصوصه شكوى (نبعت عن روح متمردة أنكشف لها ما في الحيـــاة مـــن عبـــث وبطلان) [٢٧] ، بعد خوضها تجارب خائبة منها ما حدث لأبي حيان مع الصـــاحب بن عباد الذي لم ينل منه شيئاً بعد أن أقبل إليه وهو يعاني (شدة العدم والأنقـــاض، والحاجة المزعجة عن الوطن وصفر الكف عما يصان به الوجه ، وبعد تـــرددي إلى بابه في غمار العادين والرائحين والطامعين الراجين ..) [٢٨] . لذا تراه بعـــد عودته من أبن عباد حانقا عليه غاضبا منه شاعرا بالظلم من سوء فعلـــه معـــه إذ يقول عنه (أني رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه في معاملتي ، وشديد الغيـــظ لحرماني ..) [٢٩] .

ولا يجد أبو حيان مناسبة إلا وكانت فرصة لإظهار شكواه ، وتبرمه مـــن حاله ، فهو إذ يرى نفسه قد تأخر في تلبية من أراد منه جمع أحـــاديث الفلاســـفة ومحاوراتهم ، حتى يتحينها فرصة ليبكي شاكيا حاله ، مصـــورا بؤســـه ، مقلبـــا الحديث عن همومه ، متعمقا في أفكاره التي يريد قولها ، مؤكدا ما يساور نفســـه من قلق وإضطراب ، وما يجد من عوز مادي ، مما نجده في قوله معتـــذرا عـــن تأخره في جمع المقابسات : (وو الله ما تلومت على جمعها في كتاب واهدائها إليك في أقرب وقت على أيسر وجه ، الا لغمرات هذه الدنيا وأختلاف أحوال أهلـــها، وتقلب ظلالها وأفيائها ، ووجيّ نجومها وأنوائها وقلـــة يقظـــة آبائـــها وأبنائـــها، وأنحطاط رتبة بعد رتبة بأهلها ، وفساد حال بعد حال على المتعلقيـــن بحبالـــها ، الحالبين لضرعها النادمين في عواقبها فقد أصبحنا في هذه الدار كأنما هـــي قـــاع أملس أو برّ أخرس لم يبق من يرضى هدية ، أو يقتبس علمه ، أو يتوخى معانـــه، أو يعرف حدة ، أو يعرض أدب من الآداب عليه ، أو يباش بوجه من الوجوه إليه وما ذاك إلا لنغل القلوب ، ودخل الأعراق وخلوقة الدين ، وغلبة القحة ، وارتفاع المراقبة ، وسقوط الهيبة ، ورفض السياسة ، والتبجح بالفحشاء والمنكر ..) [٣٠] . فهو لم يكتف بعرض ما هو ظاهر والشكوى منه ، بل تحدث عن فساد في النفـــس وفي القلب مع عزة بالأثم كانت فاشية في زمانه الذي جعلته نقمته عليه وضيقه بما

حواه من فساد ، مشتت البال فاقدا لما يقيم أوده ، مما يمنعه من إتمام ما يزمع كتابته ، يقول (ولكن منع منه ما أنا مدفوع إليه من تشتت بالي ، والتواء مقصدي، وفقد ما به يمسك الرمق ، ويصان الوجه ، لاعوجاج الدهر ، واضطراب الحبل ، وأدبار الدنيا بأهلها .) [٣١] . وأبو حيان يدرك أنه كرر اعتذاره كثيراً في كتبه وهو يقصد ، بذلك ، إلى النفع والفائدة في قوله : (وهذا الاعتذار قد تكرر ، فلولا سوء ظني بالزمان وأهله لما رأيت أن أعادته تنفع وتكريره يفيد ..) [٣٢] .

وشكوى أبي حيان التوحيدي أنبثقت ، أولا ، من شخصيته التي قوامها الاعتداد والشعور بالتفوق من دون تحقيق قدر واضح مما كان يريده ، مما جعله ينظر إلى حاله الذي هو فيه على أنه أقل مما يستحقه ، وهو شعور ظهر مبكراً ، وتجلى في مواضع ، منها رسالته التي وجهها إلى أبي الفضل بن العميد (ت ٣٦٠هـ) والتي منها قوله : (لما رأيت شبابي هرما بالفقر ، وفقري غني بالقناعة، وقناعتي عجزا عند اهل التحصيل ، عدلت الى الزمان اطلب مكاني فيه ، وموضعي منه ، فرأيت طرفه نابيا ، وعنانه عن رضاي منثنيا ، وجانبه في مرادي خشنا ، وارتقائي في أسبابه نائيا ، والشامت بي على الحدثان متماديا ، طمعت في السكوت تجلدا ، وانتحلت القناعة رياضة ، وتألفت شارد حرصي متوقفا ، وطويت منشور أملي متنزها ، وجمعت شتيت رجائي ساليا وادعيت الصبر مستمرا ، ولبست العفاف ضنا ، واتخذت الأنقباض صناعة ...) [٣٣] . فهذه المشاعر القوية ظهرت في النصوص السابقة ، فهو أن أظهر الصبر والسكينة ، ففي داخله حيرة وإضطراب وترقب وانتظار .

وقد تطورت مشاعره حتى غدا يشعر بالوحدة وبعدم قدرته على الإندماج في الحياة العامة فلا يجد بابا مفتوحا إلا وينسد دونه ، فأسودت الدنيا في عينيه ، لتتالي الخيبات عليه حتى أحس أن الموت سيد أهمه في أي لحظة ، يقول : (الدنيا في عيني مسودة ، وأبواب الخير دوني منسدة لثقل المؤونة وقلة المعونة ، وفقد المؤنس ، وعثار القدم بعد القدم ، وانتشار الحال بعد الحال ، هذا مع ضعف

الركن، واشتعال الشيب ، وخمود النار ، وسوء الجزع وأفول شمس الحياة ، وسقوط نجم العمر ، وقلة حصول الزاد ، وقرب يوم الرحيل ..) [٣٤] . حتى توطن لديه ، شعور بعدم الجدوى من كل شيء ، فلا صديق يأمنه أو يلجأ إليه ، فلا ملجأ إلا الله تعالى : (.. ما بي طوق ، ولا معي حول ، الاحوال ، إن شرحتها، أثرت الشماتة من العدو ، وضيقت العذر على المتجني ، وحركت ساكن الخصم الألد ، وسؤت الصديق بعض المساءة ، وإن كان لا صديق ، وإلى الله تعالى أشكو غربتي) [٣٥] .

وقد أكثر أبو حيان من الاهتمام بقضية الصداقة ، وتساءل عن سرها[٣٦]. على أن يقينه بعدم وجود صديق تساوق مع ما سمعه من أحد الفلاسفة الذين كان يجالسهم في بغداد في سوق الوراقين عندما جرى حديث الصديق الذي حده : (الصديق) آخر هو أنت ، ويقال : الصديق هو أنت الا أنه بالشخص غيرك . فقال[٣٧] :

الحد صحيح ، ولكن المحدود غير موجود[٣٨] فيلتقط أبو حيان هذه الفكرة ويتساءل : (قلت له : فعلى هذا ما فائدة هذا الحد ؟ ولم قال الفيلسوف شيئا لا حقيقة له ، ولا دلالة عليه ولا يوجد في الشاهد أصله) [٣٩] ، ويبدو أنه يتساءل ، هنا ، مقراً بما يسأل عنه ، وقد استولت هذه الفكرة على تفكيره حتى غدت يقينا أكده في الصفحات الأولى من رسالته في (الصداقة والصديق) قائلا (وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق) [٤٠] . بعد أن شكا حاله وما وصل إليه من بؤس ووحدة في مقدمة هذه الرسالة التي كتبها بعد تأليفه الرسالة بوقت طويل[٤١] . في قوله : (ومن العجب والبديع إنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والومد ... لأني فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق ، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي فإني أتفق فبقال أو عصار أو ندّاف أو قصّاب ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه وأسكرني بنتنه فقد أمسيت غريب الحال ، غريب

اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ملازما للحيرة ، محتملا للأذى ، يائسا من جميع من ترى ، متوقعا لما لابد من حلوله فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى افول ...)[٤٢] .

إن هذه المشاعر بقيت تلازم فكر أبي حيان ولا تنفك تأسره ، حتى في مرحلة تصوفه ، فبقي شاكيا حاله أحباطه ، حائرا بين شهوة الدنيا ، وحب الآخرة، يقول : (فأما حالي فسيئة كيفما قلبها ، لأن الدنيا لم تؤاتني فأكون من الخائضين فيها والآخرة لم تغلب علي فأكون من العاملين لها ، وأما ظاهري وباطني فما أشد اشتباههما لأني في أحدهما متلطخ تلطيخا لا يقربني من أجله أحد ، وفي الآخر متبذخ تبذخا لا اهتدى فيه إلى رشد ...)[٤٣] .

وقد استقر الحال به ، في آخر المطاف ، أن يتعمق شعوره بالغربة التي تطورت لديه فكرا وتجربة اصلية عبرت عن حاله وهو يعيش بين الناس وهو ليس معهم ، بل منفرد محبط ، خائب حزين ، وغريب . وقد أمدته هذه المرحلة من حياته وتطوره الفكري بأفكار عميقة وأصيلة عن الغربة والغريب ، منها قوله: (وقد قيل الغريب من جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشريب ، بل الغريب من هو في غربته غريب ..) [٤٤] . مما يمثل مرحلة تصوفه ، التي نما فيها ، شعوره بالأغتراب وأنفصاله عن المجتمع . ويبدو أنه آثر قطع كل صلة له بالحياة بأحراقه كتبه سنة اربعمئة للهجرة[٤٥] فكان آخر ما يعرف عنه رسالته[٤٦] ، التي حاول فيها تسويغ هذا الأحراق مما هو مرتبط بمجمل تجربته الخائبة في حياة تيقن أبو حيان ، منذ البدء ، أنه ليس من معشوقيها ، ففي هذه الرسالة نجده يتساءل شاكيا حاله ، ولاعناً الزمان وأهله ، وباكيا ، مما نجده في قوله : (وكيف اتركها[٤٧] لأناس جاورتهم عشرين سنة ، فما صح لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ، ولقد أضطررت بينهم ، بعد الشهرة والمعرفة في

أوقات كثيرة ، إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطي الرباء بالسمعة والنفاق وإلى مـا لايحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ..) [٤٨] .

نظـرة فنيـة :

لا ندعي أننا استطعنا حصر جميع النصوص التي شكا فيها أبو حيـان[٤٩] على أن ما أوردناه منها ربما كان كافيا لرسم صورة واضحة عن طريقتـه فـي الشكوى ، وفيها لا يغادر أبو حيان خصائص أسلوبه[٥٠] التي تمثلت في خروجـه من الطبع واختيار اللفظ الفصيح الأنيق ، والميل إلى الاسترسال مع ظهور ملائـم للسجع ، وغير ذلك من سمات وخصائص وجدناها ماثلة فـي جميـع نصوصـه السابقة ، مما لا يستدعي التمثيل هنا .

ولعل أبرز ما يميز أبا حيان في طريقته في الشكوى هيمنة طريقته السيرة الذاتية في حديثه عن القضية التي يشكو منها ، فهو دائم الحديث عن نفسه شـاكيا وباكيا ، مما يظهر في كثرة استعماله ضمير المتكلم المفرد دلالةً على نفسه ، كمـا رأيناه في أكثر النصوص السابقة ، وفي قوله مخاطبا أبا الوفـاء المـهندس فـي رسالته إليه : (لقد أذلني السفر من بلد إلى بلد وخذلني الوقوف على باب بـاب ، ونكرني العارف بي ، وتباعد عني القريب مني ...)[٥١] .

كذلك ظهرت عاطفته على نحو قوي ، فمشاعره محتدمة في أثناء حديثـه عن القضية التي يشكو منها ، مما يظهر في كثرة دورانه حـول المعنـى الـذي يتناوله من مداخل مختلفة ، مبيناً جوانب شكواه منها ، ملحاً عليها ، مبالغاً في ذلك إلى أبعد حد ، حتى يصبح تعبيره عن مشاعره معادلا لحدتها واضطرامـها فـي نفسه ، من ذلك قوله في مسألته عن ملكة المسائل : (حدثني عن مسألة هي ملكـة المسائل ، والجواب عنها أمير الأجوبة ، وهي الشجافي الحلق ، والقذى في العيـن والغصة في الصدر ، والوقر على الظهر ، والسل في الجسـم ، والحسـرة فـي النفس، وهذا كله لعظم ما دهم منها ، وأبتلى الناس به فيها ، وهي حرمان الفاضل

وإدراك الناقص ..) [٥٢] . وقوله : (هذا مع ضعف الركن ، واشتعال الشيب ، وخمور النار ، وسوء الجزع ، وأفول شمس الحياة وسقوط نجم العمر ..) [٥٣] .

ولعل عنصر العاطفة هو أهم ما يحرك عنصر الخيال عنده ، فها هو خياله، في الكثير من نصوصه يبدو متحركا فعالا ، يجسد ، من خلاله المعاني ، ويصور ، بأساليب البيان وغيره ، دقائقها ، فتبدو الأفكار عنده صورا متعددة المشاهد ، وحية ، من ذلك قوله : (فقد أصبحنا في هذه الدار وكأنما هي قلع أملس أو بر أخرس . لم يبق من يرضى هدية ، أو يقتبس علمه ، أو يخطب عرفه ، أو يعتفى وجوده ، أو يقدح زنده ..) [٥٤] . وقوله : (وأصبح الدين وقد اخلق لبوسه ، وأوحش مأنوسه ، وأقتلع مغروسه ..) [٥٥] . وغير ذلك من نصوص أخرى مرت. ومن المناسب ذكر أن المرحوم د. عبد الرزاق محيي الدين قد فسر قول أبي حيان في رسالته إلى أبي الفضل بن العميد : (لما رأيت شبابي هرما بالفقر ..) على ظاهر اللفظ مدّعيا أن أبا حيان كان يداخله وسواس (ومرض نفسي كان يعاوده ، يريه المرض في الصحة ، والعجز عند التماسك ، ويخيل له الشباب هرما ..) [٥٦] غافلا عن أن ذلك هو أسلوب بياني يشبه فيه أبو حيان شبابه بالهرم تشبيها بليغا لما أصابه ، فيه من فقر وهم وسوء حال .

ولعل من ظاهر طريقته في الشكوى ، استعماله بعض الأساليب الطلبية في سياق مجازي تؤدي فيه المعاني مثيرةً وقويةً ، مما نجده ، مثلا ، في استعماله الاستفهام في قوله : (إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذاوبة ، والقميص المرقع..) [٥٧] . والأمر في قوله : (خلصني أيها الرجل من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، اطلقني من قيد الضر ، أشترني بالإحسان ، أعتبدني بالشكر) [٥٨] . فيظهر الحاحه وحدة عواطفه في تتابع افعال الأمر في هذا النص .

وهو استعمل أيضاً ، الجملة الخبرية كثيرا ، فهي تعطيه مرونة في التعبير وإحاطة بالمعنى مما نراه في قوله : (لقد أذلني السفر من بلد إلى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ونكرني العارف بي ، وتباعدني القريب مني ..) [٥٩] .

ومن الأمور الأخرى التي ظهرت في نصوصه الشاكية الألفاظ ذات المعاني المتضادة متمثلة بالطباق الذي يساعد على الإحاطة بالمعنى وعلى تحقيق أثر معين في المتلقي . فضلاً على ظهور التكرار اللفظي وتكرار الصيغ ، والجناس وغيرها .

إن ما ذكرناه في هذه النظرة الفنية الموجزة ما هو إلا تلخيص عام لأبرز الأدوات الفنية التي استعملها أبو حيان في شكواه المرة .

الهوامـــش :

١ - ظهر الإسلام : ١١٦/١ وأنظر م.ن : ١١٥/١ .

٢ - معجم الأدباء : ٦/١٥ .

٣ - النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي : ٢١٣ ، ٢٢٢ .

٤ - أبو حيان التوحيدي سيرته - آثاره : ٤٢ ، أبو حيان التوحيدي، د. إحسـان عباس : ١٩ ، ٦٨ أبو حيان التوحيدي ، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدبـاء: ١٩٥ .

٥ - معجم الأدباء : ١٨/١٥ .

٦ - مثالب الوزيرين : ٩٩ ، ١٥٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤-٢٠٦ .

٧ - الأمتاع والمؤانسة : ١/٥-٦ .

٨ - م.ن ك ٣/٢١٠-٢١١ .

٩ - الهوامل والشوامل : ٢١٢ .

١٠ - الامتاع والمؤانسة : ٤٤/١ .

وأنظر م.ن : ٤٣/١-٤٥ نماذج أخرى .

١١ - م.ن : ٣٣/١-٣٧ .

١٢ - معجم الأدباء : ٨/١٥-٩ .

١٣ - البصائر والذخائر : مج ق ٤٥٩/٢ .

١٤ - أبو حيان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني : ٦٨ .

١٥ - مثالب الوزيرين : ٤٧-٥٠ .

١٦ - الهوامل والشوامل : ١٧٦ .

١٧ - م.ن : ٨٤ ، ٩٠ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

١٨ - م.ن : ١ .

١٩ - البصائر والذخائر مج١ ق١/١٠-١١ .

٢٠ - الأمتاع والمؤانسة : ١/١١٦ .

٢١ - م.ن : ١/١٧-١٨ .

٢٢ - المقابسات : ٩١ .

٢٣ - البصائر والذخائر : مج١ ق٢ /١٦٢ .

٢٤ - الهوامل والشوامل : ٥٦ .

٢٥ - م.ن : ١٣٠ .

٢٦ - المقابسات : ٥٤ . وأنظر م.ن ٥٨ .

٢٧ - أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة : ١٩٧ .

٢٨ - مثالب الوزيرين : ٥٨ .

٢٩ - الأمتاع والمؤانسة : ١/٥٣.

٣٠ - المقابسات : ٥٣-٥٤ .

٣١ - البصائر والذخائر : مج١ ق١/٦٠ .

٣٢ - المقابسات : ٣٣٩ .

٣٣ - معجم الأدباء : ١٥/٣٧ .

٣٤ - المقابسات : ٣٥٥ .

٣٥ - م.ن : ٣٠٨ .

٣٦ - الهوامل والشوامل : ١٩٠ ، المقابسات : ٤٤٩-٤٥٤ ، الصداقة والصديق: ٢-٥ ومواضع أخرى يصعب حصرها .

٣٧ - أي محدّثه .

٣٨ ، ٣٩ - المقابسات : ٤٤٩-٤٥٠ .

٤٠ - الصداقة والصديق : ١٠ .

٤١ - م.ن : ٩ .

٤٢ - م.ن : ٩٠٨ .

٤٣ - الإشارات الإلهية : ١٨-١٩ .

وأنظر م.ن : ٥٤ ، ٩٢ ، ١٣٢ وغيرها .

٤٤ - م.ن : ٨١ ورسالته في الغريب : م.ن : ٨٠-٨٧ .

٤٥ - معجم الأدباء : ٢٦/١٥ .

٤٦ - م.ن : ١٦/١٥-٢٦ .

٤٧ - أي كتبه .

٤٨ - معجم الأدباء : ١٩/١٥-٢٠ .

٤٩ - مما لم نقتبس منه شيئاً رسالتان منه إلى الوزير أبن سعدان في الأمتاع والمؤانسة : ٢٠٧/٣-٢٢٥ ورسالته إلى أبي الوفاء المهندس م.ن : ٢٢٥/٣ وغيرها .

٥٠ - النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي : ٦٩ .

٥١ - الأمتاع والمؤانسة : ٢٢٧/٣ .

٥٢ - الهوامل والشوامل : ٢١٢ .

٥٣ - المقابسات : ٣٥٦ .

٥٤ - م.ن : ٥٤ .

٥٥ - الأمتاع والمؤانسة : ١٧/١ .

٥٦ - أبو حيان التوحيدي سيرته - آثاره : ٤٤ .

٥٧ - الأمتاع والمؤانسة : ٢٢٧/٣ .

٥٨ - م.ن : ٢٢٦/٣ .

٥٩ - م.ن : ٢٢٧/٣ .

المصـــادر :

١ - أبو حيان التوحيدي : د. إبراهيم الكيلاني . دار المعارف بمصر ١٩٥٧م.

٢ - أبو حيان التوحيدي : د. إحسان عباس . دار بيروت . بيروت ١٩٥٦م .

٣ - أبو حيان التوحيدي ، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء : د. زكريا إبراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ، ط٢ . ١٩٧٤م .

٤ - أبو حيان التوحيدي ، سيرته - آثاره : د. عبد الرزاق محيي الدين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٢ . ١٩٧٩م .

٥ - الأشارات الآلهية : أبو حيان التوحيدي . تحقيق : د. وداد القاضي دار الثقافة - بيروت ١٩٧٣م .

٦ - الأمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي . تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين. لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٣ م .

٧ - البصائر والذخائر : أبو حيان التوحيدي . تحقيق د. إبراهيم الكيلاني . مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء . دمشق ١٩٦٤ .

٨ - الصداقة والصديق : أبو حيان التوحيدي . شرح وتعليق : علي متولي صالح . مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - القاهرة ١٩٧٢م .

٩ - ظهر الإسلام : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي . بيروت ط٥/١٩٦٩م .

١٠ - مثالب الوزيرين : أبو حيان التوحيدي . تحقيق د. إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر . دمشق ١٩٦١م .

١١ - معجم الأدباء : ياقوت الحموي . دار المأمون ، القاهرة ١٩٣٦م .

١٢ - المقابسات : أبو حيان التوحيدي ، تحقيق محمد توفيق حسين . مطبعة الأرشاد . بغداد ١٩٧٠ م .

١٣ - النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي . فائز طه عمر . رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٨٣ م .

١٤ - الهوامل والشوامل : أبو حيان التوحيدي وأبو علي مسكويه . تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١م.